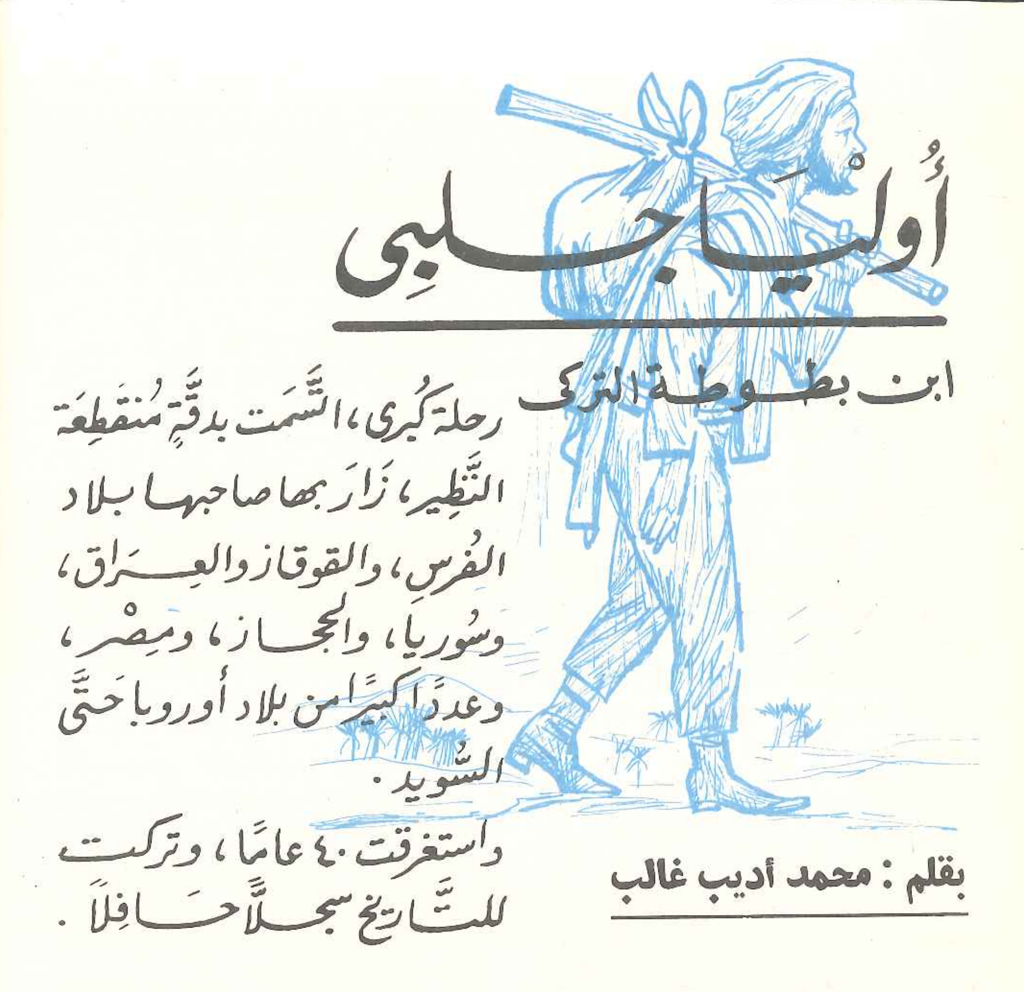

العربي
العدد ١٥٥
شعبان ١٣٩١
اكتوبر
تشرين الاول ١٩٧١
الثمار الطيبة فى قلب صحراء مصر
الثمن
الكويت ١١٠ فلوس
الخليج العربي ٢ ريال ق
السعودية ٢ ريال
البحرين ٢٠٠ فلس ب
اليمن ٢٫٥ ريال
العراق ١٢٠ فلسا
لبنان ١٠٠ قرش
الاردن ١٠٠ فلس
سورية ١٠٠ قرش
ج.ع.م. ١٠ قروش
السودان ١٠ قروش
ليبيا ١٥ قرشا
تونس ٢٠٠ مليم
الجزائر ٢٠٠ مليم
المغرب ٢ درهم
جوائز
١٢٠٠
دينار سنويا



من روائع الفن العالمى

● لوحة « المزرعة في ليكن » The Farm at Laeken، هى احدى لوحات الرسام البلجيكي روبنز Rubens الشهيرة، والموجودة حاليا في قصر بكنجهام في لندن . وليست اللوحة التى تراها بجانب هذه السطور سوى جزء من لوحة المزرعة تلك . ولعله الجزء غير الرئيسي من اللوحة ، وقد قصد بها روبنز الى تصوير الطبيعة وابراز جمالها . ويبدو ان جمال المرأة ، وهو الموضوع المحبب الى روبنز ، الغالب على عدد من لوحاته ، أبى الا أن يأخذ مكانه من لوحة « المزرعة في ليكن » .. فكانت هذه الحسناء الريفية التى تفيض رقة وانوثة .

انظر صفحة (١٥٤)



أُولِيَا جلبي

ابن بطوطة الترك

رحلة كبرى، اتّسمت بدقّة منقطعة النّظير، زار بها صاحبها بلاد الفُرس، والقوقاز والعِراق، وسُوريا، والحجاز، ومِصْر، وعددًا كبيرًا من بلاد أوروبا حتّى السُّويد.

واستغرقت ٤٠ عامًا، وتركت للتّاريخ سجلًّا حافِلًا.

بقلم : محمد أديب غالب

■ اذا كان الرحالة العربى العالمى ابن بطوطة المغربى قد خلف لنا تراثا خالدا في اسفاره التى كانت تطالع بالمدارس الثانوية الى عهد قريب : فان « ابن بطوطة التركى » اوليا جلبى(١) قد وفّاه حقه المستشرق بارتولد (١٨٦٩ – ١٩٣٠) يوم كتب عنه يقول : « ومن الآثار ذات الاصالة التى دونت باللغة التركية وصف رحلة اوليا جلبى الذى يفوق كثيرا آثار الجغرافية العربية الكلاسيكية فيغزارة مادته الجغرافية والاثنوغرافية واللغوية على الرغم من انه قد اعمل فيه خياله بصورة كبيرة »(٢) .

ثم كرر بارتولد هذا الحكم على اوليا جلبى بايجاز في كتابه « الحضارة الاسلامية » فقال : « ان اوليا جلبى يفوق من حيث وفرة المادة وغزارة المعلومات مصنفات خيرة الجغرافيين العرب على الرغم من جنوحه الواضح الى الخيال »(٣) .

وجاء بعد ذلك المستشرق كراتشكوفسكى (١٨٨٣ – ١٩٥١) ليؤكد قول بارتولد قائلا : « اما من حيث ثقافته الجغرافية فقد كان بلا شك اكثر قراءة واطلاعا من ابن بطوطة ولجأ اكثر منه الى استعمال المصادر الادبية »(٤) .

اسمه ولقبه

هو اوليا جلبى بن درويش بن محمد من مواليد

(١) جلبى : تلفظ بين الجيم والشين وهى اقرب الى لفظ الشين . وهى كلمة تركية معناها : لطيف او مهذب ، وفي اصطلاح اهل العراق السيد . والعامة في الديار الشامية تقول : « فلان شلبى » بمعنى لطيف المعشر ، او انيق المظهر .

(٢) Bartold, Iet.Izuch. Vostoka 2, P. 114 .

(٣) Bartold. Kult, Mus. P. 140 .

(٤) تاريخ الادب الجغرافي العربى .

اسلامبول « القسطنطينية »[٥] ومن اصل تركى والذى راق للكثير من المؤلفين الترك وغيرهم ان يلقبوه بـ « ابن بطوطة التركى » حيث برز الى حد كبير في محيط الجغرافيا والرحلات الكبرى ، مما جعله ان يحمل لقبا آخر باسم « سياح‌عالم » وما زالت الدوائر العلمية في تركيا تطلقه عليه الى يومنا هذا .

كان‌جده محمد حاملا للواء السلطان‌محمد الثانى الفاتح واشترك فى فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣ . اما والده درويش فقد كان جواهرى « قويومجى باش » البلاط السلطانى وكان في معية السلطان سليمان القانونى في بعض حملاته العسكرية . كما ان والدة « ابن بطوطة التركى » كانت‌اختا للصدر الاعظم . ولقد عرف عن اسرته انها عاشت اعمارا طويلة اذ بلغ جده من العمر العقد الرابع بعد المئة ، كما ان والده مات عن مئة وسبعة عشر عاما .

مولده ونشأته

اما رحالتنا فقد ولد عام ١٠٢٠ هـ ـ ١٦١١ من اصل رفيع ، لكنه لم يشأ ان يلتحق بالجيش ولا بالبلاط الذى كان قريبا منه طول حياته . ولقد ظهرت لديه منذ البداية بعض الميول العلمية نحو الدراسات القرآنية . ففى عام ١٠٤٥ هـ ـ ١٦٣٦ نلتقى به ، حافظا للقرآن الكريم بمسجد ايا صوفيا ، وهناك نجد السلطان مراد يجذبه الاهتمام بالحافظ فيضمه الى حاشيته ومرافقته دون ان يعين له عملا رسميا في البلاط .

ثم نراه يلتحق بالجيش النظامى بمرتبة « سباهى » ولم يكن له حظ الترقية فى سلك الرتب الوظيفية ، وقد يرجع ذلك الى اتجاهاته كرحالة ، وصوفي ، ومجاهد في‌سبيل الحملات التى كانت تدور يومئذ بين الشرق والغرب على ارض اوروبا الشرقية والوسطى .

عصر الرحالة

لو دققنا النظر في العصر الذى عاشه الرحالة بالذات ، لوجدنا ان العثمانيين الاتراك في ذلك الحين ، كانوا يمثلون مجرى القوة والاندفاع الحضارى الاسلامى بكل ظواهره وتجاربه . ولقد استطاع هذا الاندفاع البشرى العثمانى ، ان‌يتحرر اولا من الجهالة القَبَلية التى لم تكن تعرف في جانكيزيتها وتيموريتها ، الا القتل والخراب والتدمير . فاذا بها بين ليلة وضحاها ترتقى الى القمة الاسلامية السامقة ، في‌المعتقدات‌التوحيدية، والموازين والقيم الاخلاقية ، فتتحرر الامة التركية بفضل الاسلام من عبودية العبيد للعبيد ، وترفع في آسيا الصغرى صيحة التوحيد مجلجلة صافية عالية « الله اكبر الله اكبر » .

من تلك الحقيقة التاريخية التى هذه بعض ملامحها ، يوم ظلت الامبراطورية العثمانية الاسلامية طوال القرنين السادس والسابع عشر[٦] دولة من اعظم دول الغرب واقواها ، ان لم نقل اعظمها واقواها على الاطلاق . وكانت ادارتها الحكومية منتظمة تنظيما محكما نهدف الى الخير العام وتوفيره للرعية . وكانت تثق بولاء شعبها واخلاصه لها ، ذلك الشعب الذى يعتبر الطاعة والنظام من ارفع الفضائل الذى ينالها المرء في حياته . اما جيشها النظامى فقد كان احسن الجيوش تدريبا ، وكانت مدفعيتها احسن مدفعية تملكها اية دولة وكان اسطولها يسيطر على البحر الابيض المتوسط كله .

الرحلة الكبرى

من تلك الملامح الاسلامية اتسمت رحلة اوليا جلبى بدقة منقطعة النظير . والتى استغرقت اربعين عاما . نجد رحالتنا يجوب الآفاق تارة في لباس امام او مؤذن ، او قارىء (حافظ) للقرآن

---

(٥) ان اليونانيين المحدثين سموا عاصمتهم باسم مشوه الاصل « استانبول » اما الاتراك فقد غيروا الاسم الى اسلامبول اى ، « مستودع الاسلام » Mazas, Alexandre, Les Hommes Illustres De L'Orienr Vol. 11. P. 383 (Paris 1847)

(٦) في المعاهدة المعقودة بين السلطان محمود الثالث وبين هنرى الرابع ملك فرنسا سنة ١٥٩٧ ، تبدأ المعاهدة هكذا : « انا السلطان الذى بفضل نعم الله وآلائه التى لا تحصي ، وبفضل قوة الخالق العظيم وبفضل معجزات نبيه الاعظم ، امبراطور الاباطرة الظافرين ، موزع التيجان على اعظم ملوك الارض ، خادم الحرمين الشريفين مكة والمدينة ، وحاكم القدس الشريف وحاميها . الخ » France, Ministers Des Affairs EtranGeres - Turquit, Vol. 1 (1494 - 1644)

الكريم . ومرة نجده كاتبا للسر في معيته شخصيات من كبار رجالات الدولة ، وطورا مبعوثا خاصا لهؤلاء الى العاصمة . وقد ساقته اسفاره الطويلة السنين ، الى بلاد الفرس والقوقاز والعراق وسوريا والحجاز ومصر وجنوبى روسيا والافلاق والبوسنة والنمسا والمجر ، والى اعماق البلاد الالمانية ، والسويد وبولندا ، وآخر تاريخ في وصف اسفاره هو عام ١٠٨٩ هـ – ١٦٧٨ ولهذا يفترض انه قد توفي عقب ذلك في عام ١٠٩٠ هـ – ١٦٧٩ ولم يكتب له الحظ من العمر الطويل ، كما كتب لاسلافه من الآباء والاجداد القريبين منه .

اسلامبول وضواحيها

قام رحالتنا ((ابن بطوطة التركى)) باسفاره التى بدأت منذ عام ١٠٤١ هـ – ١٦٣١ عندما اخذ يتجول حول المواضع التى تحيط باسلامبول ومواقعها . وقد كرس فيما بعد من وصفه لتلك المواقع من الجزء الاول من مؤلفه الضخم الذى يقع في عشرة اجزاء ، والتى انتظمت في شكل يوميات ، وبوصف مسهب لأطول رحلة بلغت في ضخامتها واسلوبها القصصي السنين الطويلة .

بروسه وازمير

ونستطيع ان نتتبع طريق رحلته في الجزء الثانى الذى يتناول فيه الكلام بالتاريخ المفصل عن بروسه (١٠٥٠ – ١٦٤٠) وازميد (نيقوميدية) ورحلته الى باطوم ، وطرابزون وبلاد الابازة(٧) Abkhazia ، (١٠٥٠ هـ – ١٠٥٤ هـ = ١٦٤٠ – ١٦٤٤) والحملة على كريت (١٠٥٥ هـ – ١٦٤٥) ، ورحلته الى أرضروم وآذربيجان ، وكرجستان Georoia واماكن اخرى (١٠٥٦ هـ – ١٠٥٨ هـ = ١٦٤٦ – ١٦٤٨) .

سوريا وفلسطين

يصف رحلته في الجزء الثالث الى سوريا وفلسطين وارمية وسيواس وكردستان وارمينيا (١٠٥٨ هـ – ١٠٦٠ هـ = ١٦٤٨ – ١٦٥٠) والروملى ، خاصة منطقتى بلغاريا ودبروجه (١٠٦١ هـ – ١٠٦٢ هـ = ١٦٥١ – ١٦٥٢) وفي عام (١٠٥٩ هـ – ١٦٤٩) ادى ((ابن بطوطة التركى)) فريضة الحج ولكنه ارجأ وصفها الى الجزء التاسع من مصنفه .

العراق وايران

وفي الجزء الرابع يصف لنا مدن وان وتبريز وبغداد والبصرة (١٠٦٥ هـ – ١٠٦٦ هـ = ١٦٥٥ – ١٦٥٦) .

فى الحملات والبعثات

يحتوى الجزء الخامس خاتمة وصف رحلته السابقة من والى البصرة ، ووصف رحلته الى وتشاكوف Ochakov (قرقمان) والحملةالعثمانية ضد راكوتشي Rakoczi ، والغارة على روسيا وذلك عام ١٠٦٦ هـ – ١٠٦٨ هـ ١٦٥٦ – ١٦٥٨) ثم الحملة على العصاة بالاناضول ورجوعه من بروسة عن طريق الدردنيل الى ادرنة (١٠٦٩ – ١٠٧٠ هـ = ١٦٥٩) . ويلى هذا وصفه للسفارة الى البغدان Moldavia، والحملة على ترانسلفانيا والبعثة الى البوسنة والحملة على دلماسيا ثم رجوعه الى صوفيا (١٠٧٠ هـ – ١٠٧١ هـ = ١٦٦٠) .

محاصرة ايوار

ويحتوى الجزء السادس وصفا لانشغال الرحالة في الحملة على ترانسلفانيا والبعثة الى البانيا ورجوعه الى اسلامبول (١٠٧١ هـ – ١٠٧٢ هـ = ١٦٦١ – ١٦٦٢). والحملةضد المجر ومحاصرة ايوار ورحلته فى النمسا والمانيا وهولندا حتى بلوغه بحر الشمال . كما ان هذا الجزء يحتوى على صور حية ، وتفاصيل مغرية غريبة عن جيوش التتار البالغ عددها (٤٠٠٠٠) جندى ، وعن استيلاء العثمانيين مع هذا الجيش القوى على مدينة ايوار وبعض قلاع المجر الاخرى، وتمضيتهم الشتاء بقشلاق بلغراد (١٠٧٣ هـ – ١٠٧٤ هـ = ١٦٦٣ – ١٦٦٤) . ثم البعثة الى بلاد الهرسك ، والحملة على الجبل الاسود وكانجة Kaniza بالمجر وكرواتيا .

القوقاز ودنكرك

وقد خصص الرحالة الجزء السابع لوصف النمسا والمجر والبغدان والافلاق والقريم

(٧) الابازا Abaza قبيلة تنتسب الى الابقازيا Abkhazia (الجزء المركزى للقفقاس) واكثر احفادهم قد هاجروا الى سوريا (حمص ، القنيطرة ، دمشق ، منبج) والى الاردن (عمان ، الزرقاء).

والداغستان وغيرها من نواحى القوقاز(٨) ودشت قبجاق واستراخان والطريق الى آزاق Azov ويضم هذا الجزء وصفا لفيينا واوربا الوسطى حيث بلغ الرحالة مدينة دنكرك وعلى ما يبدو ان « ابن بطوطة التركى » كان ضمن حاشية السفير قره محمد باشا عام ١٠٧٥ هـ - ١٦٦٤ والتىكانت تضم مئة وخمسين شخصا . ثم لم يلبث الرحالة ان اتم تجواله منفردا بروح من الشجاعة النادرة، ولم يرجع الى اسلامبول الا بعد ثلاثة اعوام ونصف ، وذلك في سنة (١٠٧٠ هـ - ١٦٦٨) مجتازا في طريقه بلاد السويد وبولندا وروسيا والقريم .

كريت وسلانيك

ويصف في الجزء الثامن القريم ابتداء من آزاق ثم كريت وسلانيك والروملى بما في ذلك ادرنة ، كما انه يصف في هذا الجزء اشتراكه مجاهدا في حملة ضد كريت ثم في الحملة ضد المينا . Lemainotes.

فى الحج

وفي الجزء التاسع افرد الرحالة وصفا شيقا لحجته في ١٠٥٩ هـ - ١٦٤٩) منذ بدايتها من اسلامبول فالاناضول وسوريا والحجاز .

فى مصر والسودان

وفي الجزء العاشر الاخير يحتوى وصفا لمصر مع استطرادات تاريخيـة مفصلة ، ثم الكـلام على السودان والحبشة .

كتاب الرحلة

يقول موردتمان (١٨٥٢ - ١٩٣٢) عن كتـاب الرحالـة اوليـا جلبـى « تاريخ سـياح » او « سياحتنامه » والذى يعد من خيرة المستشرفين العارفين لتاريخ تركيا : « يجب الاعتراف بانكتاب الرحالة التركى ذخيرة لا تنفذ فى جميع ما يمس الحياة الاجتماعية والادب الشعبىوالجغرافيا وانه يعرض كل هذا في كتابه بأسلوب يمتاز بالبساطة والحيوية معا » .

كما ان تتشنر يقول : ان كتاب ، «سياحتنامة» يعد من اهم الوثائق التى تصف العصر الذى عاش فيه الرحالة اوليا جلبى ، فهو مصدر تاريخى في المكانة الاولى بالنسبة لتلك الفترة ويقدم لنا في ذات الوقت وصفا للبلاد والشعوب التى رآهـا لا يدانيه فيه احد ، وهو معين لا ينضب فيتفاصيله التى تمس جميع مظاهر الحضارة البشرية » .

الرحالة الصوفى

وقبل ان ننهى بحثنا عن اوليا جلبى يجب ان لا ننسي ان اسمه وحياته وليد المدرسة الصوفية التركية فمصنفه الفذ الضخم بالمعارف ، يتضمن الـى جانب الاحصائيـات والمـداخل التاريخيـة والاوصاف الجغرافيةوالملاحظاتالشخصيةالدقيقة التى يتميز بها بدرجة عالية من حب الاستطلاع ، يتضمن الكثير من الحكايات التى تتصل بكرامات الاولياء والصالحين . وهو يبرز بمعطيات البراءة والقداسة الاسلامية يوم كان رئيس الدراويش المولوى ، ويسمى « جلبى افندى » ، يقومبمراسيم تنصيب سلطان عرش الامبراطورية العثمانية والتى كانت تقام في مسجد الصحابى ابو ايوب الانصارى والقائم عند طرف القرن الذهبى خارج اســوار اسلامبول .

الخاتمة

من كل ما تقدم نتبين ان « ابن بطوطة المشرقى » اوليا جلبى (١٠٢٠ - ١٠٩٠ هـ الموافق ١٦١١ - ١٦٧٩) لم يكن ذلك الرحالة التركى الاسلامـى فحسب ، بل كان في ذات الوقت صوفيا مجاهدا عالما يقف في المستوى القريب من الرحالة المغربى الشهير ابن بطوطة . ولقد حظيت رحلته « تاريخ سياح » في الاوساط العلمية المعاصرة ، كحدث هام قائم بذاته ، وذلك لانها كانت تمثل اهميـة خاصة وقد تم تحليل ما وصفه الرحالة بدقةتوجت بالابحاث والشهادات العديدة المركزة ، التى قام بها المستشرقون نحو مصنفه الطريف في كل جانب من جوانبه الوصفية .والعلمية المختارة . ■■

محمد اديب غالب
طرابلس / لبنان

(٨) البلاد الداغستانية تشمل المناطق الشرقية لقفقاسيا جمعاء . وهى بلاد حصينة بطبيعتها حصينة بقوة اهلها وغيرتهم الوطنية ، واليهم يرجع الفضل في قهر وعرقلة سير الغزاة الفاتحين . وقد كافحوا او حافظوا على استقلالهم وبقائهم بشجاعة وبسالة لا مزيد عليها ، ونالوا بذلك افخر الشرف .